تْشِيزارِي بافِيزِي

في مقهى المحطة
وقصص أخرى

الترجمة عن الإيطالية: محمد وليد قرين





«È bello scrivere perché riunisce le due gioie: parlare da solo e parlare a una folla.»

Cesare Pavese, 4 maggio 1946, nel *Mestiere di Vivere*

«الكتابة شيء جميل لأنها تجمع بين فرحتين: فرحة التحدث مع النفس وفرحة التحدث مع جمهور».

تْشِيزارِي بافِيزِي، في تاريخ ٤ ماي ١٩٤٦، في كتابه «مهنة العيش».
ترجمة الاقتباس: محمد وليد قرين

الاسم

لا أتذكر من كان رفاقي في تلك الأيام. كان يعيش في دار بالبلدة، يبدو لي مقابل دارنا، ولدان بألبسة بالية، ربما كانا أخوين. كان اسم أحدهما بالِه، وأصله باسْكوَالِه، ومن الممكن أن أسمّي الولد الآخر بهذا الاسم. ولكن كان ثمة العديد من الأولاد الذين كنت أعرفهم.

كان بالِه ذاك طويلا جدا وعنده فم حصان، وعندما كان أبوه يبرحه ضربا كان يهرب من الدار ويتغيب يومين أو ثلاثة؛ بحيث أنه عندما كان يظهر من جديد، كان أبوه يترصّده بالسوط وكان يجلده من جديد، وكان باليه يهرب مجددا وكانت أمه تناديه بصوت مرتفع، لاعنة إياه، من تلك النافذة المتقشرة المطلة على المروج وعلى غابة النهر الصغيرة، عند انفتاح السهل الفسيح. كانت ثمة صباحات أستيقظ فيها على وقع الصرخة المتذمرة، الإيقاعية التي كانت تطلقها تلك المرأة من تلك النافذة. العديد من العجائر كن ينادين أبناءهن هكذا ، ولكن اسم باله هو الاسم الذي كان يجعل الجميع يصمت والذي كان يدوي في ساعات محددة بشكل مزعج كدوي طلقات بنادق الصيادين. نحن أيضا كنا نصرخ بذلك الاسم أحيانا، على سبيل التحدي أو السخرية. أعتقد أنّ حتى بالِه كان يستمتع بصراخ اسمه.

يوم صعدنا إلى الجهة القاحلة من الرابية المقابلة- في أوقات القيظ كنا قد اجتزنا النهر والنباتات ذات الأغصان الشائكة لا أعرف إن كنا وحدنا، أنا وبالِه. من المؤكّد أنّ رفيقي كانت

له أسنان بارزة وشعر أشقر، وأتذكر ذلك لأنني حكيت له أن الأسد، الذي يعيش في الأماكن القاحلة، لديه أسنان كأسنانه وشعره أصحر. في ذلك اليوم كنا متوترين لأننا كنا قد كلّفناه بالقيام ببحث ممنهج عن الأفعى. كنا مبللين بالمياه إلى غاية البطن واحترقت رقابنا تحت الشمس؛ كانت بعض الضفادع قد قفزت من تحت الحجارة المزاحة وأصيبت كواحلي بكدمات كثيرة. كان يسيل من أسنان بالِه عصير أخضر لعشبة كان يريد مضغها. ثم كنا قد سمعنا، وسط صمت النباتات والماء، صراخ نداء في الريح، صراخ كان يبدو بعيدا ولكنه كان واضحا.

أتذكر أنني استرقت السمع، في حالة ما إذا كانوا ينادونني.

ولكن الصرخة لم تتكرّر. بعد وقت قصير غادرنا ضفة النهر وصعدنا ضلع الجبل قائلين لبعضنا البعض إننا سنذهب لقطف البرقوق، ولكن كنا ندرك، على الأقل أنا كنت أدرك ذلك وكان قلبي يخفق بشدة، أن هدفنا هذه المرة كان القبض على الأفعى. عند صعودنا في العرقوب بين أشجار العرعر، تشجعت فبدأت أتحدث عن الأسود. كنت قد خلعت حذائي، كتعويذة ولد صالح يتّقي شر المخاطر المبيتة للمساءلة التي كنت سأخضع لها في المساء. كنت أصفر صفيرا خفيفا.

تأفّف مني رفيقي وقال لي:

- اخرس! ما هكذا ننادي الأفاعي.

كنا قد أمسكنا بعصا على شكل شوكة حتى نتمكن من النيل من الأفعى ونقتلها. ربما كان عددنا كبيرا عندما غطسنا في

الماء، ولكني متأكد أننا نحن الاثنين فقط صعدنا تلك الطريق الضيقة. كان باليه مختلفًا جدًا عني وكان يمشي حافي الرجلين على الحجارة وعلى الأشواك، دون أن يكترث بها. كنت أريد أن أقول له ذلك، عندما توقّف فجأة أمام شجيرة وبدأ يصفر صفيرا خفيفا، ثم انحنى إلى الأمام، هازًا رأسه. كانت الشجيرة تنبثق من جرف صخري، ومن هناك كنا نرى السماء.

قلت وسط الصمت: «من الأجدر أن نقبض على الأفعى».

لم يجبني صديقي وواصل الهمس، كان همسه يشبل خيطا من الماء يسيل من الحنفية. لم تخرج الأفعى.

زعزعنا صخب مفاجئ دوّى في الريح، شيء يشبه الصرخة أو صدمة كبيرة. تكرّرت النداءات من القرية: «باليه! باليه!» كان ذلك الصوت المعتاد، المتذمّر والغاضب.

فكّرت مباشرة في أهلي بالدار. كان باليه قد توقّف، رأسه إلى الأمام، واقفا على ساق واحدة وبدا لي أنّ تعابيره ارتسمت عليها واحدة من تكشيراته الشيطانية. ولكن بمجرد عدوة الصمت، انطلق الصوت الصارخ من جديد: باليه! باليه! كان صوتا لاإنسانيا في فجوة الهواء تلك. وحينها رمى رفيقي عصاه ساخطا وقال: «يا لهم من أوغاد. إذا ما سمعت الأفعى اسمي بينما نحن نبحث عنها، فستتعرف عليّ لاحقا.»

فقلت له: تعال معي!

كانت العجوزة الملعونة لا تزال تنادي. كنت أراها عند النافذة، تظهر من حين لآخر برضيع بين ذراعيها وتصرخ كما أنها كانت تغنّي. أمسكني باليه من معصمي وقال لي: «اهرب!» جرينا دفعة واحدة إلى غاية السهل؛ كنا نصرخ لبعضنا البعض: «الأفعى!» لكي نهيّج أنفسنا، ولكن خوفنا- خوفي على الأقل- كان شيئا معقّدا أكثر، شعور بالإساءة إلى قوى الهواء والحجارة، لست أدري.

حلّ المساء وكنا جالسين على دعامات الجسر. كان باليه صامتا ويبصق في الماء.

قلت لباليه:

- نستنشق الهواء المنعش في الشرفة.

كان قد حان الوقت الذي تنادي فيه كل نساء البلدة فلان وفلتان، ولكن كان هدوء رائع يخيّم على تلك اللحظة، ولم نكن نسمع إلا صوت بعض حشرات الصرّ.

فكّرت قائلا: لم ينادوني بعد. ثم قلت:

- لماذا لا تستجيب عندما ينادونك؟ سيضربونك هذا المساء.

هزّ باليه كتفيه وعبس. ثم قال لي:

- كيف تريد أن تفهم النساء.

- هل صحيح أن الأفعى، عندما تسمع اسما، تأتي للبحث

عــن حامــل الاســم؟

باليــه لم يجِــب. كان قــد أصبــح صمُوتًــا مثــل رجــل، لكــثرة هروبــه مــن المنــزل.

- إذن مــن المفــروض أن كل أفاعــي هــذه التــلال تعــرف اســمك.

- مــن المفــروض أنهــا تعــرف اســمك أيضــا. قــال باليــه وهــو يضحــك هازئــا.

- ولكن أنا أستجيب فورا.

- الأمــر ليــس كــما تظــن. أتعتقــد أنّ الأفعــى يهمّهــا إن كنــت ولــدا صالحــا؟ الأفعــى تريــد أن تقتــل الذيــن يبحثــون عنهــا.

ولكــن الصرخــة انطلقــت مــن جديــد. كانــت العجــوزة قــد عــادت لتظهــر في النافــذة. صرّت عجــلات عربــة وسُــمِع صــوت تســاقط ســطل في البــئر. فتوجّهــت حينهــا إلى داري وبقــي باليــه عــلى الجــسر.

العنوان في الأصل: Il Nome

نشر في جريدة Il Messaggero ، بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٤١.

نهاية أغسطس

كنا نتمشى بتأن، في ليلة من ليالي أوت العاصفة التي يهب فيها ريح دافئ، على الرصيف، نتجاذب أطراف الحديث. والريح الذي كان يداعبنا بغتة، بصم على خداي وشفتاي موجة عطرة، ثم واصل دورانه بين أوراق الشارع اليابسة. والآن لست أدري إن كان ذلك الدفء يفوح برائحة المرأة وبرائحة الأوراق الصيفية، إلّا أن قلبي امتلئ فجأة بشيء ما، لدرجة أنني توقفت عن المشي.

انتظرتْ كْلَارَا، نصف ملتفتة، أن أستأنف المشي، ثم فجأة هبت علينا موجة أخرى من الريح، فتوقفتْ عن المشي للحظة، دون أن ترفع بصرها، منتظرة مرة أخرى. سألتني أمام البوابة إن كنت أريد أن أشرح لها أو أن نواصل التنزه. بقيت قليلا واقفا على الرصيف مستمعا إلى هدير ورقة يابسة سقطت بقوة على الأسفلت، ثم قلت لكلارا أن تصعد وإنني سألحق بها مباشرة.

عندما صعدت، بعد مرور ربع ساعة، جلست لأدخن عند النافذة، وأتشمم الريح، وسألتني كلارا عبر باب الغرفة إن كنت قد هدأت. قلت لها إنني كنت بانتظارها، وبعد لحظة، كانت بجانبي في الغرفة المضببة، اتّكأتْ على الكرسي الذي كنت جالسا عليه وكانت تستمتع بدفء الريح دون أن تنطق بكلمة. كنا شبه سعيدين في ذلك الصيف، ولا أتذكر أننا تشاجرنا ولو مرة واحدة وكنا نمضي ساعات طويلة مع بعض قبل أن نغوص في النوم. كلارا تفهم كل شيء، وكانت تحبني في تلك الفترة؛ أنا كنت أحبها ولم أكن بحاجة لكي أقول لها ذلك، رغم أنني أدرك الآن أنّ مأساتنا بدأت في تلك الليلة.

لو أن كلارا غضبت على الأقل بسبب ارتباكي ولم تنتظرني بخضوع كبير. كان باستطاعتها أن تسألني ما الذي دهاني، كان يمكنها أن تخمن السبب، بما أنها كانت قد أحست بذلك الشيء. ليتها لم تسكت، كما فعلت، متفهمة بنسبة كبيرة. أكره الناس الواثقين من أنفسهم، ولأول مرة كرهت كلارا.

كان دوران الريح الليلي ذاك، قد دسّ تحت بشرتي وخياشيمي، بهجة قديمة جدا، وهي جزء من تلك الذكريات العارية والسرية التي تشبه جسدنا، ذكريات قد نقول عنها أنها ملتصقة بالجسد منذ الطفولة. حدث ذلك بشكل غير متوقع. كان الشاطئ الذي ولدت فيه يمتلئ في الصيف بسباحين وكان حارقا تحت الشمس. كان الصيف عبارة عن ثلاثة، أربعة أشهر من حياة لطالما كانت غير متوقعة، مضطربة، مشؤومة، تشبه الرحلة أو الرحيل.وكانت المنازل الصغيرة والشوارع الصغيرة تعجّ بالأولاد، بالعائلات وبنساء نصف عاريات لدرجة أنها لم تكن تبدو لي نساء وإنما كانت تسمّى السباحات. أمّا الأولاد فكان لديهم أسماء مثل اسمي. كنت أتعارف معهم ونصبح أصدقاء وآخذهم معي على متن القارب، أو كنت أهرب معهم إلى حقول العنب. كان أبناء السباحات يريدون البقاء في الشاطئ من الصباح حتى المساء: كنت أبذل مجهودا كبيرا لآخذهم للعب وراء الجدران الصغيرة، فوق المرتفعات الصغيرة، في الجبل. كان ثمة فيلات وحدائق كثيرة بين الجبل والقرية، وكانت الرياح القوية، خلال هبوب العواصف الرعدية في نهاية الموسم، تمتلئ بروائح نباتية وساخنة جدا نشتم فيها أزهارا مسحوقة على الحجارة.

تعرف كلارا الآن أن العواصف الليلية تذكرني بتلك الأيام. وهي معجبة جدًا بي- أو كانت معجبة جدًا بي- لدرجة أنها تبتسم وتصمت عندما ترى أن هذه الذكرى تفاجئني. وإذا أخبرتها بذلك أو تحدثت عن هذا الموضوع، تكاد تشدّني من الرقبة. لذلك هي لا تعرف أنني أدركت في تلك الليلة أنني كنت أكرهها.

ثمة شيء ما في ذكريات طفولتي لا يتحمل دفء جسد امرأة، حتى وإن كانت كلارا. في تلك المواسم الصيفية الملونة الآن في الذاكرة بلون واحد وحيد، ترقد لحظات توقظها فجأة كلمة أو شعور، فيبدأ الشعور بالضياع بسبب الابتعاد، وعدم التصديق أنني أعيد اكتشاف فرحة كبيرة في زمن اختفى وكاد يتلاشى. كان ولد-هل كنت ذاك الولد؟- يتوقف في الليل على حافة البحر- وسط الموسيقى والأضواء غير الحقيقية المنبعثة من المقاهي- ويتشمم الريح-ليست تلك الريح البحرية، وإنما هبّة مفاجئة من الأزهار المحترقة في الشمس، أزهار غريبة ويمكن لمسها. قد يكون ذلك الولد موجودا من دوني؛ وهو وُجْد بالفعل من دوني، ولم يكن يعرف أن فرحته ستزهر من جديد في انسان آخر، في رجل، بعد مرور سنين عديدة وبشكل لا يصدق. ولكن رجلا ما يفترض وجود امرأة ما، هي المرأة؛ رجل ما يعرف جسد امرأة ما، رجل ما يجب أن يعانق، أن يداعب، أن يسحق امرأة ما، امرأة من بين تلك النساء اللواتي رقصن تحت أضواء المقاهي، أمام البحر، واللواتي تفحّمن بأشعة الشمس. الرجل والطفل يتجاهلان بعضهما البعض ويبحثان عن بعضهما البعض، هما يعيشان معًا ويجهلان ذلك، وعندما يلتقيان مع بعضهما

البعض، يحتاجان إلى أن يكونا وحيدين.

لقد أحبّتني كلارا المسكينة في تلك الليلة، مثلما كانت تحبني. وربما أحبّتني أكثر من العادة، لأنها تملك حيلها هي كذلك. أحيانا نلعب لعبة كشف الغرابة بيننا، لعبة نشعر فيها أن كل واحد منا غريب عن الآخر وهكذا نهرب من الروتين. ولكني لم أعد أستطع حينئذ أن أسامحها لكونها امرأة، امرأة من بين تلك النساء اللواتي تحوّلن رائحة الريح البعيدة إلى رائحة لحم جسد.

العنوان في الأصل: Fine d'Agosto

تاريخ نشر القصة: ٣١ أوت ١٩٤١ في جريدة «Il Messaggero»

في مقهى المحطة

دخلت ذات صباح ، قبل أن تشرق الشمس، في مقهى المحطة، وبما أنّ قطاري لم يكن سينطلق مباشرة، جلست إلى جانب شابين محاطين بأمتعة. قال أحدهما:

- لقد حلّ الصباح

- لقد حلّ الصباح

- ليلة البارحة كانت هادئة.

- سيكون يوما هادئا.

جدران مقهى المحطة المزججة لا تسمح برؤية السماء، ولا تسمح حتى برؤية جزء من الرصيف الفارغ. تغطّي الجدران سقيفة كبيرة، ولا ترى العين سوى قدر كبير أو صغير من النور. ثم يوجد دائما دخان كبير تحت السقيفة، أمّا الدخانات التي تنفثها القطارات السريعة فهي تدرك الجدران المزجّجة. الكثير من الناس يروحون ويجيئون.

- لقد جئنا باكرا جدّا

- لم أكن أستطيع النوم

- تودّ أن تنام.

- بودّي أن يأتي الغد سريعا.

كانا الاثنان يدخنان بيد متراخية، دون النظر إلى السيجارة.

- لن تستطيع النوم غدا أيضا.

- سأنام في القطار.

- هذا غير ممكن.

- سنرى ذلك.

لا أحـد منهـما كان ينظـر باتّجاهـي؛ كانـا منطويـين عـلى نفسـيهما، مسـندين ظهرهـما إلى الكـرسي، جنبـا إلى جنـب، ويحدقـان في الطاولـة الصغـيرة. كانـت رِجـل أحدهـما موضوعـة فـوق حقيبـة سـفر.

- آخر مرة نمت كانت البارحة.

- هل اكتشف ذلك؟

- ذلك لا يهمه. الشيء الوحيد الذي يهمه هو أن نذهب.

سكتا لحظة ثم قال الأول:

- يجب أن تفهم أنه أمر سريع الانجاز.

- أعرف جيدا

- وإذَنْ

- ولكننـا نفكـر في ذلـك منـذ فـترة طويلـة، وأنـا لم أنـم ليلـة البارحـة. مـن يـدري متـى سـننام.

ألقـى نظـرة خاطفـة إلى الجهـاز الـذي يعلـن عـن القطـارات

القادمة، حيث اشتعل ضوء شاحب يشير إلى اسم مدينة. تحرك جمع كبير في المقهى. جاء رجل سمين من الكونطوار إلى الطاولة الصغيرة. نزلت الرِجل من حقيبة السفر بسرعة، فأمسك الرجل السمين الحقيبة متنهّدا وغادر المقهى. بدأ مسافرون يدخلون من الباب المزجّج. كانت القطارات السريعة تنفث دخانها.

قال أحدهما، ذاك الذي كان يتحدث بنبرة مشجِّعة:

- سترى أنّك لن تفكر في ذلك عندما ستركب القطار. اكتف فقط بالارتخاء عند انطلاق القطار. سنقوم برحلة جميلة في هذا النهار الجميل.

- لا يعجبني العمل في الجو الجميل، وإنما يعجبني التنزه عندما يكون الجو مشمسا.

- تتكلم هكذا ولكن هذا ليس صحيحا.

- كيف؟

- الجميع يحب التنزه. أنت لا تريد العمل.

- يمكنك قول ذلك. تعجبني الأمور المُنجَزَة.

- أنا يعجبني السفر بينما تضرب أشعة الشمس النافذة الصغيرة .

- وهل هذا لا يعجبني أيضا؟ ولكن شرط أن يكونِ الجو مشمسا حقا وأن أفعل ما أشاء في النهار الجميل وأن لا أفكر في شيء آخر. لم أنم أيضا ليلة البارحة.

ابستم الشاب الآخر ابتسامة ساخرة تجاه السيجارة واسترق النظر إلى رفيقه لأول مرة. قال له:

- ستُنجز عملا جيّدا. أعرفك. أنت دائما تبدأ العمل متوتر الأعصاب.

- من الأحسن أن أكون متوتر الأعصاب قبل العمل بدلا من بعد العمل. ولكن لا يعجبني هذا العمل على كل حال.

لقد أكملا شرب أكواب الحليب. لم يكن هناك داع لكي يرفع الانسان رأسه حتى يدرك أن النهار قد أطلّ خارج المقهى. استأنف الحديث ذاك الذي ضحك فقال:

- هو يهمّه فقط أن نذهب.

- يمكنك قول ذلك.

- هو يذهب للتنزه وقتما شاء.

- أنا أعرف أن ليلة البارحة لم أستطع النوم.

- ولكن هذه المرة هي الأخيرة.

- نحن دائما نقول ذلك.

أشعل ذاك الذي كان متوتر الأعصاب سيجارة أخرى، ثم عاد لينطوي على نفسه ويسند ظهره إلى الكرسي.

- ليت القطار يفوتنا.

- هذا لا يحدث أبدا.

صمتا لحظة أخرى.

- سيكون الجو باردا أيضا في الجنوب.

- الجو المشمس مشمس في كل مكان.

- ألم تكن تريد الجو المشمس.

- لا يعجبنـي العمـل في الجـو المشـمس. أحـب التنـزه في الصبـاح. يعجبنـي أن أسـتيقظ وأجـد أن العمـل تـم إنجازه وإكمالـه. سـترى أن الشـمس سـترحل غـدا عندمـا سـنكون قـد انتهينـا مـن العمـل.

العنوان في الأصل: Nel caffè della stazione

تاريخ كتابة النص: ٢٨ أكتوبر-١ نوفمبر ١٩٤١

حكاية أرق

عندما كنت أرجع إلى الفناء قبل الفجر (كنت عائدا من حفلات، من أحاديث، من مغامرات)، كنت أعرف أن أبي كان هنالك، تحت البقعة السوداء لشجرة الجوز، واقفا، ينظر إلى ما بين الأشجار، بعينين ، متأهب دائما للخروج في ليلة مليئة بالنجوم. أما أنا فكنت أخرج من المروج وكنت أجتاز البطحة (كان بإمكاني أن أمر من المدخل المسقوف حتى لا يراني أحد) ولكن كان من الأفضل أن يدرك فورا أنني لم أكن أريد الاختباء وأن يعرف، عند انقشاع الظلام، أنني كنت قد رجعت منذ فترة طويلة. كانت شجرة الجوز تملئ نصف السماء، ولكن جزءا كبيرا من البطحة كان يبقى مكشوفا وكان يمتد، في منتهى البياض؛ كنت أمر على ذلك البياض وكان الليل واضحا للغاية لدرجة أنني كنت أرى ظلي تحت قدماي.

كنت أجتاز ذلك البياض دون النظر جهة شجرة الجوز، لأنني لو نظرت لكان عليّ أن أتوقف ولناداني أبي وقال شيئا ما ولخرج من الظل. لم يكن أبي ينام في الليل لأنه كان مسنًا وكان يشعر أنه يضيع وقته. كان يقول إنّ الوقت الذي لا نقضيه على هذه الأراضي هو وقت مهدور. كان ينزل من السرير في قلب الليل (كان ينهض قبل حلول الظلام) ويبدأ دورانه، كان يدخل إلى الاصطبل الفارغ ويصوّب مذراة ويلتقط كومة من التبن. لم تبق لنا سوى كرمة واحدة منذ أن تزوجت أخواتي، كانت الكرمة عبارة عن قطعتي أرض على جانب المنحدر كان يفلحها نهارا ويراقبها ليلا من الفناء. في الماضي (عندما كنا صغارا) كنا

نسمعه يمس الحبل في الاسطبل ويفتح الباب الصغير الذي كان يصرّ مصدرا زمجرة، بينما كنا نحن نتقلّب بين النوم واليقظة. وكانت تلك الزمجرة تبدو لنا حينها خطرا، تبدو لنا صوت أبينا الحقيقي، الذي كان يسهر لأنه لم يغمض له جفن وكان في الليل يعرّض الدار للأخطار المفزعة التي يمكن لصوت مفاجئ أن يشكّلها في الظلمة. كنا نودّ لو انغلق الباب الصغير وراءه حتى نشعر بالأمان في أعماق سُرِرنا، حيث كان قلبنا يدق. لطالما عشنا في تلك الدار التي كان فيها أي صوت يعني وجود أجنبي.

-

كنت أظهر الآن في الفناء ضاحكا، وكنت أعرف أن أبي كان ينتظرني تحت شجرة الجوز. كان أحد يرافقني أحيانا إلى غاية الطريق تحت الكرمة: كنا نتحدث عن قارورة النبيذ الأخيرة ، عن ما تم فعله وما كان يجب فعله. كنت أقول له حينها: «أراك غدا» فيجيبني «أراك غدا» ثم كان الآخر يبتعد بخطى طويلة، تحت الأشجار، متجها إلى داره هو أيضا. كنت أصعد العرقوب بسرعة فكنت أرى شجرة الجوز الكبيرة وكنت أجد نفسي في بطحة كل الليالي. كنت أمرّ منها دون أن أتوقّف أمام ظل أبي. كنت أشعر أنه ينظر إلي ويريد التحدث معي. لم أكن ألتفت، كنت أبلغ الباب فكان اللقاء مؤجلا إلى مرة أخرى.

كان لأبي أفكاره الخاصة في النهار وكان ينفجر غضبا ضد ماما ويصرخ علي. كانت هناك دائما أشغال تافهة وكان يجب إنجازها في سبيل الحصول على السلام. كنا نربط أحزمة ونقلب الأرض. لم يكن أبي يطلب منا أن ننحني ونتعب بقدر ما كان يريد أن يرانا من حوله وندور في الساحة حتى نوهمه أن

الجميع كان لديه عمل. كانت الأجواء ميتة في منزلنا منذ أن تزوجت أخواتي التي كانت تكري له الكرمة، لم نعد نر أي أحد في المنزل وحتى الاسطبل كان خاليا. كانت هناك أيام أشعر فيها بالملل مثلما كان يحدث لي عندما كنت صغيرا ولم يكن أحد يأتي للعب معي. كنت أذهب فجأة إلى الحقول وكنت أقول إنني ذاهب إلى القرية؛ ولكن عوض ذلك كنت أذهب إلى منزل أختي وأطلب منها أن تعطيني عملا ما، أيا كان: لم تكن تعطيني أي عمل، ولكن كان ثمة دائما شخص يمر من منزلها فكنت أتحدث معه حتى أشبع.

كان أبي يسألني في العشاء: ما الذي فعلتموه؟ ولم يكن داعي لإجابته والقول إننا كنا قد تحدثنا، لأنه حينها كان يبدأ بالصراخ وبالتهجم على ماما التي كانت قد أنجبتنا هكذا. لم يكن يتهجم علي. عندما كان الليل يهبط، كان أبي يكف عن التهجم علي، لم يكن يجرأ على مواجهتي. كان دائما على وشك الخروج من الظل، ولكني كلما مررت، متأبطا سترتي، متصنتا لصوت حشرات الصَرّار، لم يكن يحدث أي شيء. الشيء الوحيد الذي كان يحدث هو أنني عندما كنت أدخل الدار، كانت أمي تناديني من فراشها، بصوتها المختنق (هي كذلك لم تعد تنام كثيرا، بسبب سنها) وكانت تسألني إذا ما كان أبي لا يزال في البطحة، كانت تريد أن تعرف ما كان يفعل، إذا ما كان قد قال إنه سيرجع إلى الدار. كنت أطمأنها وأقول لها أنني رجعت وكان النهار قد طلع. كنت أجيبها هكذا بانزعاج، فكنت حينها أشبه أبي كثيرا . كنا في شهر أغسطس ولم يكن هناك داع للقلق إذا شيخ لم يكن يريد النوم. كانت ماما تسكت شيئا فشيئا،

ولكن حتى أنا لم أكن أستطيع النوم (كان النبيذ وأحاديث الليل تشوّش عقلي). خارج الدار كان ثمة الريف وكانت هناك الطرق الخالية، أما الغد تحت الشمس فسيكون شيئا آخر؛ ولكن ريثما يأتي الغد كانت الرغبة، رغبة التخلص من تلك الحياة ومن ركوب قطار والذهاب إلى المدينة لإقامة حياة تليق أكثر بالإنسان، تمنعني من النوم. حتى أبي كان قد هرب إلى المدينة في شبابه، وكان قد هرب مشيا على الأقدام لأن السكك الحديدية لم تكن موجودة في وقته. ولكنه كان قد عاد بعد مرور عام. أما أنا فلم أكن أريد الرجوع أبدا.

في ليلة انتقال العذراء[1]، رجعت إلى المنزل في الصباح، وللمرة الأولى بدت لي طريق الأرض العشبية مختلفة عن العادة. خرج أبي من الاسطبل بينما كنت أتناول الفطور عند الباب.

- كيف جرت الحفلة؟

- التقيت بِنَانِّي، قلت ماضغا. لقد تحدثنا.

- ماذا يمكن لذلك المتشرد أن يقول...

- لا شيء. يأخذني للعمل معه وقتما شئت.

توقف أبي، وهو في حيرة من أمره. كان يمسك في يده لجاما وضعه على النافذة. لو كنا في العام الماضي لضربني به على الظهر. ولكن لم يعد ينفع الضرب الآن، فاستدار نحو الاسطبل

---

١ عيد عند المسيحيين الكاثوليك يحتفلون فيه بانتقال مريم عليها السلام إلى السماء بالروح والجسد، حسب اعتقادهم. وهو عطلة رسمية في بلدان ذات تقاليد كاثوليكية كإيطاليا وإسبانيا وفرنسا (ملاحظة المترجم)

التـي كانـت أمـي خارجـة منـه، ماسـحة عينيهـا بيدهـا. تركتهـما يصرخـان بينـما كنـت أنظـر إلى الظـل الطويـل لشـجرة الجـوز.

العنوان في الأصل:Insonnia

تاريخ نـشر هـذه القصـة: ١٢ فبرايـر ١٩٤٢، في جريـدة «Il Messaggero»

الصيف

لا أدري ما أحكيه لكم عن الصيف الذي قضيته في المدينة شبه الفارغة. فإذا أغلقت عيناي، ها هو الظل يظهر من جديد ليؤدي وظيفته المنعشة، والشوارع بالتحديد هي عبارة عن ظلال وأضواء. كنا نحب المساء والسُحب شديدة الحرارة الثقيلة فوق المنازل والوقت الهادئ . ما عدا ذلك، كان الليل يبدو لنا ذلك الدّغش الذي يبتلع من يرجع إلى المنزل هاربا من القيظ. كنا نلتقي عند حلول الليل، ثم كان الوقت يمر بسرعة فإذا بالصباح يطلّ علينا معلنا عن يوم آخر هادئ. أتذكر أن المدينة كلها كانت ملكا لنا، بمنازلها وأشجارها وطاولاتها الصغيرة ودكاكينها. أرى من جديد جبالا من الفواكه في الدكاكين وعلى المقاعد. أتذكّر الرائحة الساخنة والأصوات في الشوارع وأعرف متى يستقر الإطار الشمسي على بلاط الغرفة في ساعة معيّنة.

لكني من جهة أخرى، أكاد لا أتذكر شيئا عنّا وعن كلماتنا. أعرف أني أكلت فواكه كثيرة وأنني غفوت مرات عديدة، مُعانِقا أو مُعانَقا كما أعرف أنني، عندما كنت أتأخر للعودة إلى المنزل مساءً، كنت أستمتع بالنظر إلى المارة، كنت أستمتع بالألوان واللحظات وكنت أعرف حينها أنني كنت مُنتَظَرًا. أعرف أنّ يداي وجسدي كانوا قد صاروا شيئا دافئا وحيّا، تماما مثل السحب والهواء والتلال في تلك الأمسيات الصيفية. كانت كل تلك الأشياء مألوفة لدي وتتكرّر يوميّا، لو لم يبدو لي تعاقب تلك الأيام حتى الآن

ضربا من الخيال، لدرجة أن الفصل كله يبدو لي أحيانا، عندما أتذكره، نهارا واحدا عشته بملئه. كان أحمل ذلك النهار بداخلي، وكانت الرفيقة، التي انتهت علاقتي بها بالنتهاء الصيف، تهب ذلك اليوم صوتا ومعنى. عندما كنا نفترق، لم يكن يبدو لنا أننا افترقنا حقّا، وإنما كان الأمر يبدو لنا كما لو أننا كنا نذهب إلى مكان آخر وننتظر بعضنا البعض، كالذهاب إلى موعد ما، كما يختفي التل تارة ويظهر تارة أخرى خلف الشوارع. كنا نرى التل يتغطى كل مساء بغطاء من الظلال، وكان يعجبنا هدوءه كثيرا لدرجة أنه أصبح جزءا من أجزاء الغرفة، جزءا من النافذة ومن الشارع. لم يكن التل يغيب عن الأنظار لقربه من الغرفة، فكان التل يعلن عن بداية وعن انتهاء النهار. كنا نأكل الفاكهة ناظرين إلى التل. أما الآن فلم يتبق سوى التل والفواكه.

كانت المدينة شبه الفارغة تبدو لي خالية. لعبة الغميضة بين الشمس والظل كانت تجعلها حية لدرجة أنه كان يعجبني أن أتوقف وأطلّ من النافذة على السماء وحجارة الرصيف. ومعرفتي بأنه، بالإضافة إلى النور وإلى الظل المنعش، كان ثمة شيئ آخر أحبه، شيء يولد من جديد مع الشمس ويعجّل حلول الليل، كان يهب معنى لكل لقاء كان يحدث في تلك الطرق. كانت ثمة الأشجار تشرب عصير الشمس، كان هنالك صراخ النساء، كان ثمة صمت طويل. كنت حينها أغادر الغرفة وأنا أشعر بروائح أخرى وبعذوبة المساء. كنت أستطيع أن أنظر إلى كل شيء وأن

أحـــب كل شيء.

أحيانـا، في جـزء آخـر مـن المدينـة، كانـت هنالـك سـاحة تنتظـرني، ساحة بسـحبها وحراراتهـا الهادئـة. لا أحـد كان يعـبر مـن تلـك السـاحة، ولم تكـن تنفتـح أيـة نافـذة. لكـن نهايـات الشـوارع الخاليـة كانـت تنفتـح منتظـرة صوتـا أو خطـوة شـخص مـا. وإذا مـا اسـترقت السـمع، كان الزمـن يتوقـف في السـاحة. كان يحـدث ذلـك عـصرا. ثـم في المسـاء، كنـت أفكّـر في السـاحة فأجـد أنهـا لم تتغـيّر.

في تلـك الأمسـيات، لم يكـن الصيـف يفقـد شـيئا مـن شـدته، بمـا أنّ كل واحـد منّـا كان يـدرك أنـه يفكّـر في الآخـر. وكل لقـاء اعتيـادي كان يبـث في قلبـي تلـك القناعـة ويغـيّر بالـكاد مكانهـا ثـم يجعلهـا تفيـض بداخـلي. وإذا بالنـور ترتعـش حينهـا، النـور الـذي كنـت أراهـا كذكـرى فتيـة، كنـت كـما لـو أننـي أدخـل فجـأة إلى صيـف مختلـف، متجـاوزا الأجسـاد والأصـوات، وكانـت الغرفـة التـي غادرتهـا تبـدو لي كظـل حـذر يسـتقبلني مـن جديـد. كان كل شيء يحـدث يتحـول إلى ذكـرى، لأنـه كان يحـدث بداخـلي قبـل أن يحـدث في الخـارج. كان الأمـر يبـدو لي كـما لـو أنـه كنـت أنـا مـن صنعـت النهـار الطويـل، ولذلـك لم يكـن يبـدو لي أي شـيئ في الغرفـة شـيئا غريبـا. حتـى الجسـد الـذي كان يسـتقبل جسـدي، وحتـى الصـوت الخاضـع لم يكونـا يبديـان لي شـيئين غريبـين.

ذات مسـاء، صـارت الغيـوم كثيفـة وتسـاقط المطـر الليـل كلـه. كنـت ألقـي نظـرات إلى الخـارج مُنتَظِـرا مـن نافـذة لم تكـن

نافذتنا فكانت قطرات المطر تصيب وجهي. كنت أدرك حينها أن نور الشمس ستكون اقوى وأن الظل سيكون باردا أكثر في اليوم التالي، فلم أستعجل للعودة إلى حيث كنت مُنتَظَرا. كان ذلك المطر آخر مطر في الصيف، مطر غيّر لون المدينة. كان بإمكاني أن أنتظر حتى يتوقف المطر، ولكني نزلت وتمشيت تحت المطر في طرق أخرى. كنت أفكّر بشدة في نافذتنا، أفكّر فيها وأبتعد عنها. كان التل منتصبا عند نهاية الطرق، يجعله الظل المتنامي غامضا وقريبا. رأيت تحت المطر عتبات نوافذ وأبواب لطالما كنت قد رأيتها في جو مشمس. كان كل شيئ حينها منتعشا وقريبا، وكانت مدينتي هذه المرة خيالية فعلا. عبرت من ساحات كثيرة، وعندما رجعت إلى حيثما كنت منتَظَرا، مغروما ومفكّرا في طرق الغد، وجدت الغرفة فارغة وبقِيَتْ كذلك إلى غاية حلول الليل، فوقفت أمام النافذة.

بقينا سويا أيّاما عديدة، إلى غاية نهاية الصيف. ولكن كلانا كان يدرك أنّ كل شيء كان سينتهي في الخريف. ذلك ما حدث بالفعل.

العنوان في الأصل: L'estate

نشرت هذه القصة في جريدة « Il Messaggero » بتاريخ ٦ جوان ١٩٤٢.

ضباب وشمس يعميان الأعين

لم يتبق أي شيء من طبيعتي القديمة. ما كدت أن أصبح رجلا حتى أدركت أنني كنت لا أزال طفلا. كنت قد أدركت ذلك منذ زمن طويل، ولكن كل شيء حدث ذات مساء وذات صباح، مع نهاية فصل الشتاء. كنا سويًا، مختبئين تقريبا، في غرفة تطل على الشارع. قالت لي سيلفيا، خلال تلك الليلة، أنه كان يجب أن أرحل، أو أن ترحل هي، وأن كل شيء كان قد انتهى بيننا. توسلت إليها بأن تتخلى عن هذه الفكرة وأن نحاول من جديد الإبقاء على علاقتنا. كنت راقدا بجانبها وأعانقها. فقالت لي: «ما الفائدة من أن نجرّب مرّة أخرى؟». كنا نتحدث بصوت خافت، في الظلمة.

ثم رقدت سيلفيا، أما أنا فألصقت ركبتي بركبتها إلى غاية حلول الصباح. أطل الصباح مثلما كان يطل دائما، وكان الجو باردا. كان شَعْر سيلفيا ملتصقا بعينيها. كانت جامدة في مكانها. كنت أنظر في الظل مرور الوقت، كنت أعلم أنّ الوقت كان يمر ويجري، وأنّ الضباب كان في الخارج. كان كل الزمن الذي كنت قد أمضيته مع سيلفيا يبدو لي كما لو أنه نهار واحد وليلة واحدة كانا ينتهيان الآن في الصباح. وحينها فهمت وأدركت أنها، ابتداء من ذلك الصباح، لن تخرج معي أبدا في الضباب البارد.

كان من الأحسن أن أرتدي ملابسي وأرحل دون أن أوقظها. ولكن حينئذ كان يخطر ببالي شيء آخر كنت أودّ أن أسألها إياه. فانتظرت، محاولا أن أغفو.

عندما استيقظت سيلفيا، تبسّمت إليّ. عاودنا الحديث عن مشكلتنا. فقالت لي:

- جميل أن يكون المرء صريحا مثلنا.

- أُوهْ يا سيلفيا، دمدمت. ماذا عساني أن أفعل بعد أن أخرج من هذه الدار؟ إلى أين سأذهب؟

كان هذا هو السؤال الذي كنت أريد أن أطرحه عليها.

تبسّمت من جديد بابتسامة ساذجة، من دون أن ترفع رأسها من المخدّة، ثم قالت لي:

- يا أيها الأحمق، اذهب أينما شئت. أليس جميلا أن يكون المرء حرّا؟ سوف تتعرف على نساء كثيرات، وسوف تفعل ما يحلو لك. أحسدك على ذلك.

في تلك اللحظة كان الصباح يملئ الغرفة كلها بضوئه. كان السرير المكان الوحيد في الغرفة الذي احتفظ بقليل من الحرارة. كانت سيلفيا تنتظر، صابرة. قلت لها:

- أنت كالعاهرة ولطالما كنت كذلك.

لم تفتح سيلفيا عينيها. أجابتني فقالت:

- حسنا، أتشعر أن حالتك تحسنت بعد أن قلتها الآن؟

فتظاهرْتُ بعدها كما لو أنها ليست موجودة، وكنت أنظر إلى سقف الغرفة وأبكي بصمت. كانت دموعي تغمر عيناي

وتسيل على الوسادة. لم يكن الأمر جديرا بأن أجعلها تعرف أنني كنت أبكي. لقد مر وقت طويل جدا، والآن أعرف أن تلك الدموع الصامتة كانت علامة الرجولة الوحيدة مع سيلفيا. كنت أعرف أنني لم أكن أبكي بسببها، بل لأنني كنت قد لمحت قدري في تلك اللحظة. لم يتبق أي شيء من ما كنته في الماضي. لم يتبق سوى الإدراك بما سأكون في المستقبل.

ثم قالت لي سيلفيا:

- هذا يكفى! يجب أن أنهض.

لقد قمنا سويا. لم أرها ترتدي ملابسها. قفزتُ بسرعة من السرير وانتصبتُ أمام النافذة. كنت أنظر إلى النباتات التي كانت تظهر من خلال النافذة. كانت الشمس من وراء الضباب ، الشمس التي لطالما أدفأت الغرفة بأشعّتها. ارتدت سيلفيا ثيابها بسرعة، هي كذلك. سألتني إن ما كنت سأحمل معي حوائجي. قلت لها إنني كنت أريد قبل القيام بذلك أن أسخّن القهوة، فأشعلْتُ الموقد.

أخذَتْ سيلفيا، الجالسة على حافة السرير، تلقّم أظافرها. في الماضي كانت تلقّمهم دائما وهي جالسة أمام الطاولة الصغيرة. كانت تبدو شاردة البال، وكان شعرها يتساقط باستمرار على عينيها. فكانت وقتئذ تحرّك رأسها وتتخلّص من شعرها المتساقط. أما أنا فطفت في الغرفة وجمعت حوائجي. وضعت منها كومة على كرسي، وفي لحظة ما، قفزت «سيلفيا» على رجليها وخفّت لإطفاء النار على القهوة التي كانت تتدفّق.

ثـم سـحبت الحقيبـة ووضعـت فيهـا حوائجـي. وخـلال ذلـك كنـت أحـاول جاهـدا داخـل نفـسي جمـع كل الذكريـات المزعجـة التـي كانـت لـدي عـن «سـيلفيا»: الأشـياء السـخيفة، مزاجهـا المُعَكّـر، كلماتهـا التـي أثـارت غضبـي، جعداتهـا. كنـت أقـذف بـكل هـذه الأشـياء خـارج الغرفـة، وكنـت أتـرك بداخلهـا ضبابًـا.

عندمـا انتهيـت مـن العمـل الـذي كنـت منشـغلا بـه، كانـت القهوة قـد أصبحـت جاهـزة. تناولناهـا واقفـين، بجانـب الموقـد. قالـت «سـيلفيا» شـيئا، قالـت بأنهـا سـوف تذهـب عنـد فـلان في ذلـك اليـوم، لتتحـدث معـه عـن مسـألة مـا. وبعـد ذلـك بقليـل وضَعـتُ كـوب القهـوة وغـادَرْتُ المنـزل حامـلا معـي حقيبتـي.

وفي الخارج كان الضباب والشمس يعميان الأعين.

العنوان في الأصل: ANNI

نـشر هـذا النـص في جريـدة «Giornale del Mattino» بتاريـخ ١٣ جانفـي ١٩٤٦

العمل شيء ممتع

لطالما عشت في الريف في الموسم الجميل، من جوان إلى أكتوبر، وكنت أذهب إلى الريف مثل ما أذهب إلى حفلة. كنت فتى وكان الفلاحون يصطحبونني معهم إلى الحصاد، إلى الأعمال الخفيفة، تكديس الحشيش المجفف، جني عرنوس الذرة، جني العنب. لم يكونوا يصطحبونني خلال حصاد القمح، بسبب الشمس القائظة، وكنت أملّ من النظر إلى حراثة أكتوبر لأنني كنت أفضّل، مثل كل الفتيان، وحتى لمّا يتعلق الأمر باللعب والحفلات، الأشياء التي تعود بالفائدة، الحصاد والسلل المملوءة، والفلاح وحده من يرى في الأخاديد المفتوحة للتو قمح العام القادم. كنت أقضي الأيام التي لم يكن فيها حصاد متنزِّهًا في الدار أو عبر الأراضي، وحيدا تماما، وكنت أبحث عن فاكهة أو ألعب مع فتيان آخرين ونصطاد السمك في البِيلْبُو[٢]؛ كنا نستفيد من ذلك الصيد وكان الرجوع إلى المنزل بذلك الشيء التافه (سمكة صغيرة) يبدو لي شيئا رائعا ، سمكة صغيرة كان القط سيأكلها لاحقا. كنت أُولي أهمية لنفسي في كل ما كنت أفعله، وهكذا كنت أدفع ثمن قسطي من العمل للقريب، للدار ولنفسي.

لأنني كنت أعتقد أنني أعرف ما هو العمل. كنت أرى الناس يعملون في كل مكان، بتلك الطريقة الهادئة والتناوبية- بعض الأيام، من الفجر إلى الليل دون أن يتناولوا غدائهم حتى،

---

٢ Belbo: مجرى مائي في منطقة البييمونتي Piemonte، شمال إيطاليا، عاصمة البييمونتي هي تورينو Torino (ملاحظة المترجم)، وُلِد ونشأ بافيزي في تلك المنطقة.

متصببين بالعرق، سعداء- وفي أحيان أخرى، كنت أرى نفس الناس يذهبون في نزهة إلى القرية بقبعاتهم، أو كانوا يجلسون على العارضة ويتحدثون، وكنا نأكل ونضحك ونشرب. كنت ألتقي في الطرقات برئيس عمال كان ذاهبا تحت الشمس إلى معرض ما، ليرى ويتحدث، وكنت أتمتع بذلك المنظر وأفكر أنّ ذلك أيضا كان عمل، أنّ تلك الحياة كانت أحسن بكثير من سجن المدينة حيث كانت صافرة تقتلع موظفين وعمّالا كل يوم، كل يوم، عندما كنت لا أزال نائما، وتطلق سراحهم في الليل فقط.

في تلك الفترة كنت مقتنعا أنه ثمة فرق بين أن تخرج صباحا قبل طلوع الشمس وتذهب إلى حقل أمام التلال وتدوس العشب المبلل، وبين أن تعبر مسرعا أرصفة مهترئة، دون أن يكون لديك الوقت حتى لكي تلقي نظرة خاطفة إلى قطعة السماء التي تظهر فوق المنازل. كنت طفلا ومن الممكن أنني لم أكن أفهم المدينة حيث لا يوجد حصاد ولا توجد سلل مملوءة، وبالتالي، لو سألوني لأجبت طبعا أنه من الأحسن ومن الأنسب أن يذهب الانسان لاصطياد السمك أو قطف العليق عوضا من صهر الحديد في الأفران أو كتابة رسائل وحسابات على الآلة.

ولكني في الدار كنت أسمع أفراد عائلتي يتحدثون ويثورون غضبا ويسبون بالتحديد أولئك العمال في المدينة بصفتهم عمالا، بصفتهم أشخاصا يتخذون من العمل ذريعة للمطالبة بشيء ما والازعاج وإثارة الشغب. عندما وصل الخبر ذات يوم أن حتى الموظفين في المدينة كانوا قد طالبوا بشيء ما وأثاروا المشاكل، قامت القيامة. لم يكن أحد في الدار يفهم ما الذي كان يريد

الموظفون-الموظفـون!- أن يتقاسـموه أو يربحـوه بتحالفهـم مـع العـمال. «هـل هـذا ممكـن؟» «ينتفضـون عـلى أولئـك الذيـن يعطـون لهـم قـوت يومهـم؟» «أهـم منبطحـون هكـذا؟» «هـؤلاء هـم إمـا مجانـين أو باعـوا أنفسـهم». «جهلاء». كان الفتـى يسـتمع ويلـزم الصمـت. كان العمـل في نظـره يعنـي الفجـر الصيفـي والشـمس الكبـيرة، العـرق الـذي يسـيل ومجرفـة المحـراث التـي تقلـب الأرض. كان يفهـم لمـاذا يشـتكي النـاس في المدينـة ولا يريدون البقـاء في المصانـع مـن الصبـاح إلى المسـاء، كان قـد رأى تلـك المصانع الضخمـة وتلـك المكاتـب الخانقـة. لم يكـن يفهـم أن ذلـك كان عملا. كان يقـول في نفسـه: «العمـل شيء ممتـع.»

عندمـا كان المزارعـون يأتـون عندنـا وكان رئيـس العـمال غائبـا، كانـوا يتوقفـون ويتحدثـون معنـا. كانـا اثنـان، الشـيخ والشـاب وكانـا يضحـكان.

قلـت لهـما أيضـا، في ذلـك العـام الـذي كان فيـه أفـراد عائلتـي يثـورون غضبـا لأن المدينـة كانـت فيهـا اضطرابـات:

- العمل شيء ممتع.

أجاباني فقالا:

- من يقول هذا؟ شخص لا يفعل شيئا مثلك.

- من يقول هذا هو رئيس عمال المزرعة.

فضحكا بصوت مرتفع ثم قالا:

- طبعـا. هـل سـبق لـك أن سـمعت الخـوري يقـول إنّ الذهـاب إلى الكنيسـة أمـر سيء؟

أدركـت حينهـا أنّ الحديـث كان يتحـوّل إلى تلـك الأحاديـث التـي سـمعتها في الـدار، في ذلـك العـام.

قلت:

- إذا لم يعجبكما العمل فجني الثمار يعجبكما.

توقف الشاب عن الضحك ثم قال بصوت خافت:

- يوجـد الأسـياد الذيـن يتقاسـمون الثـمار مـن دون أن يعملـوا.

نظرت إليه مستشيط الغضب وقلت له:

- اضربـوا عـن العمـل إذا لم تكونـوا سـعداء. في تورينـو توجـد اضرابـات.

فنظـر الشـاب إلى أبيـه، غمـزا لي ثـم ضحـكا مـن جديـد. قـال الشـيخ:

- يجب أن نجني العنب أوّلا، ثم سنرى ما نفعله.

ولكن الشاب هزّ رأسه ضاحكا ثم قال بصوت خافت:

- لن تفعلوا أبدا أي شيئ، يا بابا.

وبالفعـل لم يفعلـوا أي شيء، وفي داري تواصـل الحديـث بغضب

عـن أعـمال شـغب الموظفـين والعـمال الذيـن أفسـدتهم الحيـاة السـهلة في سـنوات الحـرب. أنـا كنـت أسـتمع إلى الحديـث وألـزم الصمـت، وكنـت أفكّـر في الاضرابـات كحفلـة كانـت تسـمح للعـمال بالذهـاب في نزهـة. ولكـن هـذه الفكـرة- في البدايـة لم تكـن سـوى شـكّ- كانـت قـد تدفقـت في دمـي؛ لم يكـن العمـل شـيئا ممتعـا حتـى في الريـف. وكنـت أعـرف هـذه المـرة أنّ الحاجـة لرؤيـة الحصـاد وحملـه إلى المنـزل هـو مـا كان يمنـع المزارعـين مـن فعـل أي شيء.

العنوان في الأصل: Lavorare è un piacere

تاريخ نشر القصة: ١٨ مارس ١٩٤٦، بجريدة L'Ora del Popolo

٢٥ يوليو[٣]

ابنعث صخب الإذاعات منذ الفجر من المنازل المجاورة؛ نادتنا إيغلي من الساحة؛ كان الناس ينحدرون إلى المدينة ويتحدثون بصوت مرتفع. طرقت إيلفيرا على باب غرفتي وقالت عبر الباب إنّ الحرب انتهت، فدخلت الغرفة وحكت لي، دون أن تنظر إليّ بينما كنت أرتدي ملابسي، أنّه تم الانقلاب على موسوليني[٤]. كان وجهها أحمرا. نزلتُ فوجدتُ إيغلي وأمي، واستمعنا إلى الإذاعة-هذه المرة إذاعة لوندرا كذلك- لم يبق مجال للشك، كان الخبر صحيحا. قالت الأم:

- ولكن هل انتهت الحرب؟

- الحرب تبدأ الآن، قلت مندهشا.

فهمت حينها معنى الضجيج الليلي. أخ إيغلي كان قد ذهب مسرعا إلى تورينو. الكل كان يذهب مسرعا إلى تورينو. وجوه وأحاديث كانت تنفجر من المنازل. وانطلقت تلك السلسلة من

---

٣ يشير إلى تاريخ انقلاب المجلس الأعلى الفاشيستي على بينيتو موسوليني في جويلية ١٩٤٣ واعتقاله ثم حبسه في غران ساسو Gran Sasso بأمر من الملك الإيطالي فيتوريو إيمانويلي الثالث Vittorio Emanuele III. يمثل تاريخ ٢٥ جويلية في إيطاليا نهاية النظام الفاشيستي ولكنه لا يعني نهاية القوات الايطالية المناصرة للفاشيتية كإيديولوجيا. وظّف بافيزي هذه القصة سنة ١٩٤٩ وأدرجها في روايته La Casa in Collina (الدار فوق التل) (ملاحظة المترجم) .

٤ بينيتو موسوليني Benito Mussolini: رئيس إيطاليا الفاشيستية من 1922 إلى غاية 1943، حليف ألمانيا الهتلرية خلال الحرب العالمية الثانية. أخرجه كومندوس ألماني من معتقله في غران ساسو فأسس الجمهورية الاجتماعية الإيطالية La Repubblica Sociale Italiana (1943-1945) في مدينة سالو Salò، شمال البلد. كانت تلك الجمهورية لا تتمتع بأية سيادة وكانت في الواقع تتحكم فيها ألمانيا الهتلرية. (ملاحظة المترجم)

اللقـاءات، مـن الكلـمات، مـن الأفعـال ومـن الآمـال المذهلـة، التـي لم تكـن لتتوقـف إلا بالرعـب والـدم. كانـت عيـون الجميـع تـبرق، حتـى عيـون القلقـين. منـذ ذلـك الحـين، حتـى الوحـدة والغابـات اكتسـبت نكهـة مختلفـة. أدركـت ذلـك بمجـرد إلقـاء نظـرة خاطفـة بـين النباتـات. تمنيـت لـو أننـي عرفـتُ كل شيء وقـرأتُ كل الجرائد، حتـى أتمكـن مـن الابتعـاد والالتجـاء بـين جـذع الأشـجار وأتأمـل السـماء.

عنـد البوابـة توقـف فونسـو، نانـدو والبنـات صارخـين ومناديـن. كان يـصرخ نانـدو قائـلا: «العمـل ينتظرنـا. الفاشيسـتيون يقاومـون. تعالـوا معنـا إلى تورينـو.»

وقال فونسو: «الحرب مستمرة. لقد انتظرناكم ليلة البارحة.»

فقلـت لهـم: «يبـدو وكأنكـم ذاهبـون في نزهـة لتنـاول وجبـة خفيفـة.»

كنا نمزح هكذا. قالت البنات: «هيّا بنا».

كان فونسـو يـصرخ: «سـنقتلهم ونثبـط عزيمتهـم. سـنمد يـد المسـاعدة.

ثـم رحلـوا. قالـوا إنهـم سـيعودون في الليـل، عندمـا تهـدأ الأجـواء. لقـد بقيـت الفـوق، لا لأننـي كنـت أخـاف مـن الرصـاص (كانـت صافـرة الإنـذار أسـوأ منـه) ولكـن لأننـي كنـت أتوقـع حماسـات ومواكـب ومحادثـات شـغوفة. أرادت إيغـلي أن أرافقهـا إلى فيـلا أخـرى، لتعلـن صارخـة عـن الخـبر والإشـاعات . لقـد انتهجنـا طريقـا

صغـيرا وسـط الأشـجار، وقادنـا الطريـق وراء المنحـدر إلى عـالم مجهـول مـن الضفـاف والطيـور.

قلـت: «لقـد اقتحمـوا السـجون. إنّهـا حالـة الطـوارئ. كل الفاشيسـتيين مختبئـون. ربمـا سـنجد غـدا في هـذه الغابـة زعيـما هاربـا». كانـت تورينـو عـلى مرمـى حجـر، بعيـدة جـدًا.

قالت إيغلي: «يا له من شيء مفزع.»

- أكله الدود والنمل.

- هم يستحقون ذلك. قالت إيغلي.

- لولاهـم لمـا عشـنا في هـدوء فـوق التـل مـدة سـنوات طو يلـة .

كنـا قـد وصلنـا وسـمعتها تنـادي صديقتهـا. قلـت لهـا إنـني يجـب أن أرحـل. عبـس وجههـا . قلـت لهـا:

- السيدة إيلفيرا لا تقبل أن نذهب للتنزه في الغابة.

نظـرت إليّ بعيونهـا الصغـيرة . مـدّت لي يدهـا كـما تفعـل المـرأة ثـم انفجـرت ضاحكـة وقالـت لي:

- أنت خبيث.

اتـكأت صديقتهـا عـلى نافذتهـا، فتـاة بضفائـر. لقـد سـمعتهما مـن بعيـد تهنئـان بعضهـما البعـض. كنـت قـد انتهجـت طريـق الفـوارات. أدركـت هـذه المـرة أنـني كنـت وحيـدا. لقـد رحـل بيلبـو

إلى تورينـو هـو أيضـا. كنـت أتخيّـل الأوسـتيريا[5] صامتـة، دينـو في الحقـل والمرأتـان في المطبـخ. فكّـرت عنـد الصعـود: «ربمـا سـتقول لي كاتي الحقيقـة، بعـد أن انتهـت الحـرب الآن.»

لم تقتـض الحاجـة أن أصـل إلى الأعـلى. كاتِـه كانـت هابطـة تحـت الشـمس، مرتديـة ملابـس متعـددة الألـوان وتمـشي قافـزة. قلـت لهـا:

- تبدين شابة للغاية.

- أنا فرحة. أجابتني قائلة.

ثـم التصقـت بذراعـي دون أن تتوقـف، كـما لـو أنهـا كانـت ترقـص. قالـت أيضا:

- أنا فرحة للغاية. ألا تأتي إلى تورينو؟

ثم توقَّفَتْ وقالت فجأة:

- باسـتطاعتك أن لا تعـرف شـيئا. مـن المحتمـل أنـك كنـت نائمـا ليلـة البارحـة. لم يـرك أحـد.

فقلت لها:

- أعـرف كل شيء. أنـا فـرح مثلـك. ولكـن أتعرفـين أن الحـرب مسـتمرة[6]؟ المشـاكل تبـدأ الآن.

---

٥ L'Osteria كانت في إيطاليا القديمة عبارة عن محل شعبي يتم فيه تناول الكحوليات وأكل أطباق خفيفة ولعب الورق.

٦ بداية حرب التحرير الإيطالية من احتلال جيوش ألمانيا الهتلرية وكانت في نفس الوقت حربا أهلية إيطالية (١٩٤٣-١٩٤٥) بين المقاومة الوطنية الإيطالية من جهة، وبين القوات الفاشيستية الإيطالية الموالية للاحتلال. تحررت إيطاليا بتاريخ ٢٥ أبريل ١٩٤٥. (ملاحظة المترجم)

- ومـاذا بعـد؟ قالـت لي. عـلى الأقـل نحـن الآن نتنفـس. سـنفعل شـيئا مـا.

نزلنـا سـويا متحدثـين مـع بعضنـا البعـض. لم تتركنـي أتحـدث عـن دينـو. قالـت إنه يجـب الآن أن نكـون متفقين-أن نـصرخ، أن نُضرب، أن نفـرض أنفسـنا. قالـت إنّ التوغـلات سـتتوقف في هـذه الأيـام عـلى الأقـل، وكان يجـب أن نسـتغل تلـك الفرصـة وننتـزع السـلم مـن الحكومـة. كانـت تعـرف مـاذا كانـت تسـاوي تلـك الحكومـة؛ كانـت تقـول: «هـم نفـس الأشـخاص دائمـا. ولكنهـم خائفـون هـذه المـرة. يريـدون أن ينقـذوا أنفسـهم. يكفـي أن ندفعهـم.»

فقلت لها:

- والألمان إذًا؟ وهؤلاء الآخرين؟

- أنت نفسك قلت يجب أن ننتفض ونُطهّر المكان...

فقلت لها فجأة:

- كاتِه، أنت متحمسة جدّا. لقد أصبحت ثورية.

قالـت لي إننـي أحمـق ووصلنـا إلى الترامـواي. كنـت عاجـزا عـن الحديـث عـن دينـو. كان الحديـث كثـيرا عـن السياسـة شـيئا غريبـا ولكـن الجميـع كان يتحـدث بصـوت خافـت في الترامواي.كانـت إعلانـات تغطّـي أعمـدة الأروقـة والجـدران. كان النـاس يتوقفـون. وفي الشـوارع الهادئـة والمبتهجـة كان النـاس يمشـون حائريـن. كانت الأجـواء مضطربـة فيهـا هـرج كبـير، كـما يحـدث بعـد غـارة كبـيرة.

كانـت كاتِـه تهـرول إلى المستشـفى فتفارقنـا. قالـت لي إنـه مـن المحتمـل أنهـا والشـباب لـن يرجعـوا إلى المنـزل في ذلـك المسـاء.

- هل دينو وحده؟

- دينـو ذهـب مـن قبـل مـع فونسـو والآخريـن. سـنكون معهـم مسـاء اليـوم.

شـعرت بـالأسى. بينـما كنـت أمـزح عنـد السـياج لم يقـل لي دينـو ولـو كلمـة واحـدة، لم يُظهـر نفسـه. قالـت لي كاتِـه:

- أين ستأكل؟

بقيـت وحيـدا وتسـكّعت في تورينـو. كانـت الأجـواء تبـدو حقـا كالأجـواء بعـد الحرائـق. كان قـد حـدث شـيئ رهيـب، زلـزال، وكانــت الانهيـارات القديمـة والأنقـاض المبعـثرة في الشـوارع ، والتـي تـم إصلاحهـا قـدر المسـتطاع، تعطـي الانطبـاع المناسـب[٧]. لم يكـن يسـتطيع المـرء أن يفكّـر أو أن يقـول أي شيء، ولـو قـال شيئا مـا لـكان غير لائـق عـلى نحـو سـخيف. مـرّت مجموعـة مـن الصبيـان، يجرجـرون شـارة مـن المعـدن الأبيـض مربوطـة بحبـل. كانـوا يصرخـون تحـت الشـمس وكانـت الشـارة تحـدث قعقعـة كالطنجـرة. فكّـرت أن دينـو كان مثـل هـؤلاء، وبالأمـس فقـط كان يتخيـل أنـه يشـارك في الحـرب.

كانـت مجموعـة مـن جنـود قـوات حالة الطـوارئ تقـف أمـام لَاكَازَا

---

٧ كانت مدينة تورينو قد تعرّضت بين ١٢ و١٣ جويلية ١٩٤٣ لسلسة من الغارات الجوية العنيفة نفذها الطيران الحربي الانجليزي. (ملاحظة المترجم)

دَلْ فَاشْـيُو[8]. كانـوا يحملـون البنـادق وعـلى رؤوسـهم الخـوذ. كانـوا يراقبـون الشـارع التـي تنتـشر فيـه الأوراق المحروقـة، كـما كانـوا يراقبـون النوافـذ المكسـورة والبوابـة الفارغـة. كان المـارة ينعطفـون بعيـدا ولكـن الجنـود كانـوا يشـعرون بالملـل ويتضاحكـون فيـما بينهـم.

العنوان في الأصل: luglio 25

تاريخ كتابة القصة: ١٩٤٧

هـذا النـص مأخـوذ مـن كتـاب La resistenza al fascismo, scritti e testimonianze, Feltrinelli editore فيـه مجموعـة مـن النصـوص كتبهـا أدبـاء ومفكـرون إيطاليـون عـن مقاومـة الفاشيسـتية وعــن الحــرب الأهليــة الإيطاليــة التــي كانــت في نفـس الوقـت حـرب تحريـر مـن احتـلال جيـوش ألمانيـا الهتلريــة (١٩٤٣-١٩٤٥)

٨ La Casa del Fascio: مقرّ الحزب الفاشيتسي (ملاحظة المترجم)

مُلْحَقْ

بافيزي ونظرته على الكتابة

حوار مع الرفيق[٩]

التقيت مؤخرا بـمازينو، العامل الذي تعرّفت عليه قبل عام حين كتبت أننا نحن المثقفون ننتمي إلى الشعب مثلما ينتمي إليه هو. قلت حينها- لا نتجه نحو الشعب، وإنما نحن ننتمي إلى الشعب. من يتجه نحو الشعب هم الأسياد والرجعيون.

قال لي الرفيق:

- حسنا. هل الكتب التي تحدثتَ عنها في ذلك العام متوفرة الآن؟ هل كتبتها؟ هل كتبها زملاءك؟

- ليس بعد. لم نكتبها ولكننا تحدثنا عن كيف ينبغي أن تُكتَب.

- آ، وهل اتفقتم؟

- الأمر ليس سهلا. نتحدث مع بعضنا البعض أكثر من أي شيء آخر حتى نبقى متمّرنين. كل واحد منا، عندما يتحدث، قد اتخذ قراره مسبقا ويستمع إلى الآخر حتى يشعر بمدى سذاجته، ويتأكد من فكرته.

- أولم تفعلوا شيئا آخر؟

- الحياة الروتينية. منّا من يكتب في الصحف، ومنا من يدرّس، من يذهب إلى المكتب، من يذهب إلى المصنع.

---

٩ أصدر بافيزي عاما بعد كتابة هذا النص روايته الشهيرة Il Compagno «الرفيق» (ملاحظة المترجم)

إنّ كتابة كتاب، كتاب حقيقي، ليست عملا يوميا. حتى أولئك الذين يعتقدون أنهم يعرفون المهنة هم مجرد بؤساء. أمّا التفكير دائما في كتابة كتاب ، نهارا وليلا، فهذا عمل يومي. ولكن كتابة كتاب تشبه الإصابة بمرض ما، وتشبه ايجاد فتاة ما: هذه أشياء تحدث لك بالصدفة.

- يبدو أنكم دائما تمزحون. أريد أن أصدّقك لأنك رفيقي. ولكني كنت أتوقّع، انطلاقا من ما كنت تقوله في ذلك العام، أنكم ستتذكّرونا أيضا، أنكم ستتذكرون الناس مثلي الذين لم يكن لديهم أبدا الوقت والإمكانيات لتتبعكم. كنت تقول أن الكتب مكتوبة للجميع، ليست لفلان أو لفلتان، وأنكم تكتبونها وأنّ مهمتنا نحن هي قراءتها، وأنّ الأمور جرت دائما هكذا وأنه ينبغي أن تتوفر عندنا الإرادة الحسنة. حسنا يا رفيق، ها نحن هنا لتتبعك. نعرف أنه يجب أن نبذل هذا المجهود وسوف نبذله. ولكن أين هي هذه الكتب؟

- لقد تحدثنا كثيرا. لقد تحدثنا عن كيف ينبغي أن تُكتَب. لم يكفنا الوقت لكتابتها.

- ولكن أحدكم كتب كتبا في الماضي. ما الذي ينقصكم؟

- نريد أن نعلم إذا نكتبها الآن لكم...

- ولكنك قلت سابقا إنّ الكتب تُكتَب للجميع. قال لي الرفيق العامل ناظرًا إلي بابتسامة ساخرة.

- أنظر. قلت له. فمنذ عام يشعر الكثيرون منا بالعار إلى يومنا هذا. لقد فهموا أن الدم الذي سقى الأرض ليس مزاحا بالمرة. وهم يدركون، بصفتهم بشرا، أن ذلك الدم مستعد دوما لكي يراق ولديه نفس اللون في جسد الجميع، حتى وإن كان مرهقا بفعل التعب والجوع. وبالتالي فهم يريدون أن يفكروا أكثر في الموضوع، وأن يعملوا كل ما بوسعهم لمساعدة الجائعين والناس المتعبين، ولإيقاف هذا الدم السائل. هم يشعرون بالعار لأنهم لم يفكروا من قبل في الموضوع، ويريدون استدراك الأمر.

- هذا ما يفعلونه. وهل يجب أن يتحدثوا في الموضوع؟

- أنظر. الأمر ليس سهلا. كل واحد يتساءل ما هي الكلمات التي يجب أن يكتب بها كتبه. هل يكتبون بطريقة تكون واضحة للجميع وتنال حتى إعجاب شخص بائس أم لا. نحن عندنا حيل مثل النساء عندما يتعلق الأمربالموضة. فكل عام، عندما تتغير الموضة، تعرف أنه يجب أن يكون هناك وقت للملاحظة ولفهم لماذا توجد بعض الألوان التي تناسب النساء أكثر، لماذا نمشي دون أحذية أو لماذا نرتدي القبعة. ثم تتعود على ذلك، ولكن...

- لطالما اعتقدت أن كتابة كتاب أمر يقتضي أكثر جدية.

- اتفقنا. ولكننا نتحدث. حتى نحن الاثنين نتحدث،

كما ترى. ولا أحدثك عن مسألة ما تعالجه الكتب. خذ مثلا رواية. هل يجب أن نحكي عن حياة مثل الحياة التي تعيشها أنت أو عن الحياة التي تتمنى أن تعيشها؟ هل نحكي عن الأفكار التي تراودك نهارا أو عن تلك التي تراودك ليلا؟ هل نتحدث عن الدم أو عن النبيذ؟ الدنيا كبيرة. وانتبه إلى أن الإرادة لا تكفي لكتابة كتاب ما. يجب أن تكون عندك كل المعطيات منذ مدة طويلة.

- يبدو لي أنّه من المفروض أنّ كل واحد يتحدث عن الشيء الذي يعرفه هو.

- يا رفيق، من الصعب معرفة ما نعرفه. ثم إنّ ما تعرفه يجعلك أحيانا تشعر بالخزي. لقد كُتِبت كتب للقول إنّ المرء لم يكن يعرف كيف يقرّر، لسرد الخزي الذي يشعر به المرء تجاه الشعب الذي كان ينتظر إنذارا، نصيحة. ثم كُتِب «لا شيء. أنظروا إلي. أنا انسان بائس لا يعرف ما يقوله لكم.»

- مثل تلك المسألة المتعلقة بأنكم لا تعرفون الكلمات التي يجب أن تستعينوا بها؟

- حتى هذه المسألة مقززة. توجد عبارات تفهما قلة من الناس. ولكنها توظف لقول أشياء محددة. تعبّر عن نمط عيش كان يُعجب الأمس. ونتساءل حينها: ألا يظهر من يستعمل هذه العبارات أنه لا يقف مع

الشـعب، أنـه يعيـش بعيـدا عـن الاتصـال بالجماهـير، وبالختصـار أنّ لديـه مشـاعر رجعيـة؟

- أنـا أقـول تبـا لـه. سـينتهي أمـره. أوَ لمْ تكتـب ذات مـرة أنّ الكُتّـاب الذيـن ليـس لهـم اتصـال بالشـعب يخسرون كل شيء؟

- وسـأقول لـك شـيئا آخـر، يـا رفيـق. ليـس لنـا اتصـال بالشـعب، نحـن ننتمـي إلى الشـعب. في مهنتنـا لا توجـد لحظـة يمكننـا أن نقـرر فيهـا الكتابـة منـذ البدايـة بطريقـة معينـة، أن نقـرر فيهـا التحـدث مـن أجـل طبقـة معينـة أو مـن أجـل مصالـح معينـة. يمكننـا فعـل ذلـك ولكننـا حينهـا نبيـع أنفسـا، حتـى وإن كانـت الطبقـة العاملـة هـي التـي تشـتريك. في مهنتنـا لا نتجـه نحـو شـئ مـا: نحـن ننتمـي إلى شيء مـا. ولا يهـم كثـيرا أن تختـار العبـارات غـير الملائمـة أو حتـى أن تتكلـم كسـكان الريـف: هويّتـك تـسري في دمـك، في الحيـاة التـي عشـتها، في الطريقـة التـي صنعتـك بهـا ثلاثـون سـنة عشـتها. ومـن يشـعر الآن، الآن بالضبـط، بواجـب الكتابـة للجميـع، بواجـب الـكلام كالجميـع، بينـما لم يكـن يشـعر بذلـك مـن قبـل، في الأزمنـة المظلمة...أنـت تفهمنـي.

- هـذا رأيـي كذلـك. والآنْ قـل لي: كيـف يسـتطيع عامـل مثـلي أن يفهـم مـا تقولـه الكتـب، أن يعـرف إذا كان مـا يقـرأه مكتـوب حقـا مـن أجلـه؟

- بواسـط القـراءة والتفكـير في مـا يقـرأ. مـن خـلال الخطـأ

وإعـادة المحاولـة. لا توجـد سـبل أخـرى حتـى لنـا نحـن الذيـن نكتـب الكتـب. لا أحـد في هـذا العـالم يجـد شـيئا عبثـا.

- وهذه الكتب أليست موجودة؟

- سـتكون موجـودة يـا رفيـق، سـتكون موجـودة. الأمـر يقتـضي أكـثر مـن عـام مـن أجـل صنـع كتـاب. تلزمـك الحيـاة كلهـا. لنفكـر في أن نكـون بـشرا. أمـا البـاقي فسـيأتي لاحقـا.

- أنت قلت أنّ الأمر مثل الموضة. أهذا ممكن؟

- هـذه مزحـة. ولكـن صحيـح أن الموضـة موجـودة. الكتـب تُكتـب منـذ ثلاثـة آلاف سـنة فقـط، وإن تصفحت أشـهرها وأكثرهـا موضوعـا للحديـث فسـيبدو لـك أنـك تسـافر في البلـدان الأكـثر غرابـة. توجـد موضـة في الكلـمات، في المشـاعر، في البـكاء، في الضحـك، في المـوت، في كل شيء. يجـب أن تتحـلى بالصـبر لتعلـم هـذه الموضـات، مثلـما يتـم تعلّـم اللغـات الأجنبيـة. وحينهـا يحـدث لـك ، شـيئا فشـيئا، أن تجـد الانسـان والرفيـق في كل مـكان، كـما تسـتطيع أن تتحـدث مـع الصينـي ومـع الـتركي. ثـم يجـب التحـلي بالصـبر. كلـما خالطـت صديقـا تعرّفـت عليـه أكـثر فأكـثر. هكـذا هـي الأمـور مـع الكتـب. فأليـس جميـلا أن تنجـح في معرفـة إنسـان حـاول أن يتحـدث معـك طـوال ثلاثـين سـنة، طـوال العمـر كلـه؟

- حسنا إذن. لننتظر. سوف تنتهون يوما ما من الحديث.

- لا تأمـل في أن ننتهـي مـن الحديـث. هـل تريـد أن أبـوح لــك بــسر؟

- قل لي.

- نحن نتحدث وشخص آخر يكتب الكتب.

هكذا تفارقنا ضاحكين وراضين عن أنفسنا.

نـشر هـذا النـص في جريـدة لونيتـا L'Unità ، بتاريـخ الفاتـح مـاي ١٩٤٦.

العنوان في الأصل: Il Compagno

يوجد كل شيء في الكلمات

قـال لي مازينـو في الشـارع: نحـن الرفـاق تحدّثنـا عنـك وعـن كتاباتـك. أنـت تثمّـن مباشرة الكلـمات عندمـا تـشرح لنـا مـا هـو الكتـاب وكيفيـة قراءتـه. فالكتـاب، حسـب رأيـك، هـو كلـه كلـمات. أهـذا ممكـن؟

- فكّر قليلا.

الـشيء الجميـل في مازينـو أنـه يفهـم بسرعـة الـبرق. نظـر إلي وقـال:

- صحيح. ولكن الكلمات لها معنى معيّن.

- بالطبـع. ولهـذا السـبب بالـذات يجـب أن ننتبـه إلى الكلـمات المختـارة. أنـت تُـدرك مـن هـو الكاتـب مـن خـلال بعـض الكلـمات التـي يسـتعملها أو حسـب بعـض كلـمات أخـرى. اضرِب مثـلا برفـاق الحـرب الاسـبانية، فهنـاك مـن كان يسـميهم حُمُـر، وآخـر يسـميهم مُوالـون، وآخـر شـيوعيّين ومتمرّديـن، وهنـاك مـن كان يسـميهم وطنيـين. وكل واحـدة مـن هـذه الكلـمات كانـت توضّـح لـك مـع مـن كنـت تتحـدث، وهـذا يعنـي حينئـذ شـيئا مختلفـا. ففـي الكلـمات التـي تسـتعملها أنـت توجـد طبقتـك وعملـك، يوجـد مـا تعرفـه، مـا تأكلـه، والأشـخاص الذيـن تخالطهـم. كل شيء موجـود في الكلـمات.

- ولكـن في كتـاب مـا، توجـد قصـة وشـخصيات أيضـا. كنـا

نقـول إنّ عليـك أن تحدّثنـا عــن هــذه النقطـة. فعامـل مثـلي، إذا قـرأ كتابـا، سـيعبّر بصعوبـه عـن رأيـه. الكلـمات أفهمهـا. ولكـن تَحْدُثُ أشـياء في الكتـب، أشـياء لا تقنعنـي دائمـا.

- إذا لم تقنعـك الأشـياء، فنفــس الــشيء ينطبـق عــلى الكلـمات، صدّقنـي.

- ولكـن توجـد كتـب تبـدو مكتوبـة بشـكل جيـد، ثـم تُـدرك بـين الأسـطر أن الكاتـب يقـف مـع أولئـك الذيـن يقتلـون الشـعب. لا يملـك حتـى الشـجاعة لـكي يقـول ذلـك، ولكنـه يقـدّم لـك قصـة يَسْـخَر فيهـا الجميـع منـك. ويقـدّم لـك بيئـة لا نعـرف مـن أيـن لهـم وجبـات العشـاء التـي يأكلونهـا ومـن أيـن لهـم مـا يسـتهلكونه. ولا تقـول هـذه الكتـب أبـدا إنّ لـولا الطبقـة العاملـة لمـا حَصَـل هـؤلاء النـاس حتـى عـلى الحـمام . وتجعلـك لا تُـدرِك أبـدا أن العـالم لا ينتهـي بانتهاءهـم.

- أرأيـت أنّـك أنـت أيضـا تفهـم؟ كـن واثقـا أنّ النـاس مثلنـا يُدركـون في رمشـة عـين مـا يكـون ناقصـا في تلـك الكتـب. كـما يحـدث مـع القريـب يكفـي أن تتحـدث قليـلا لـكي تُـدرك إن كان الشـخص ينتمـي أو لا إلى وسـطك. قـد يوجَـد مـن يكـون جـادا أكـثر ويحـب المـزاح، ولكـن عندمـا يقـول لـك كيـف يتصـور العـالم ستشـعر بسرعـة إن كان بائسـا. والكتـاب هـو دائمـا وصـف لكيفيـة تصـوّرِ شـخص مـا للعـالم.

هـذه الفكـرة أذهلـت مازينـو، الـذي لم يكـن قـد فكّـر فيهـا مـن قبـل. رأيـت أنـه غمـزني كـما يفعـل حـين يسـتمتع بـشيء مـا.

قلت لـمازينو:

- ولكـن لا يجـب أن تصـدق أن الكتابـة عـن الشـعب وسرد كيفيـة عيشـه كافيـان. كثـيرون مـن يضاربـون بهـذا الموضـوع. كل واحـد صـار يعتقـد أنـه يعـرف مـن هـو الشـعب، وليـس مـن الصعـب أن تُقلّـد الكتـب العديـدة التـي كُتِبـت عـن الشـعب، وتَتحَـدَّث مثلهـا. ولكـن هنـا تـبرز أهميـة الكلمات. توجـد نبرة في الكلـمات وفي الخطاب تخونـك وتكشـف عـن هويتـك، بينـما يمكـن لأي كان أن ينسـخ حبكـة وشـخصيات روايـة مـا. يمكنـك أن تقـص حكايـات الجميـع كـما لـو أنهـا حكاياتـك أنـت، ولكـن الصـوت الـذي تتبنـاه يبقـى نفسـه. والصـوت والكلـمات التـي يختارهـا الكاتـب هـي الأسـلوب.

- ولكـن هـل أنـت تـدرك مـن هـو صـادق مـن خـلال الصـوت؟

- هنـا أحتاجـك يـا مازينـو. الممارسـة والدراسـة لازمتـان في هـذا الموضـوع. يعتقـد كثـير مـن النـاس، عـن صـواب أو عـن خطـأ، أن الجميـع يسـتطيع الحكـم عـلى مـا تتـم كتابتـه لأنّ الجميـع يعـرف كيـف يتكلـم. ولكـن توجـد كتـب لا يمكنـك حتـى أن تقـول مـا تحتويـه إن لم تعـرف

كيـف تقرؤهـا وإن لم تعـرف الكلـمات.

- هل هي كتب لنا؟

- هـي كتـب لمـن يريـد قراءتهـا. هـل تسـتطيع أن تقـول لي لمـن أُلّـف كتـاب مـا؟ ابتعـد عـن الكتـب التـي أُلِّفَـت مـن أجـل فـلان أو فلتـان؟ حتـى الكتـاب المكتـوب بالصينيـة هـو كتـاب ألّفـوه مـن أجلـك. يتعلـق الأمـر دائمـا بتعلـم كلـمات إنسـان آخـر. كل الكتـب القيّمـة مكتوبـة بالصينية ولا يوجـد دائمـا مـن يترجمهـا. تـأتي اللحظـة التـي تكـون فيهـا وحيـدا أمـام الصفحـة، مثلـما كان الكاتـب الـذي كتبهـا وحيـدا. وإذا تحليـت بالصـبر و لم تطلـب أن يعاملـك الكاتـب كالطفـل أو القـاصر، فحينهـا سـتلتقي بإنسـان آخر وتشـعر أنـك أيضـا إنسـان آخـر. ولكـن الجهـد ضروري، يـا مازينـو، النيـة الحسـنة ضروريـة. وكثـير مـن الصـبر ضروري أيضـا.

كان مازينو يستمع إلى الآن منحني الرأس وشاعرا بالندم.

- لا تؤمـن مـن يقـول إنّ الكلـمات لا تهـم. فحتـى الحبكـة والشـخصيات هـي كلـمات. أحيانـا تكـون الأشـجار، المنـازل والجبـال هـي الشـخصيات في كتـاب مـا. ومـاذا يعنـي هـذا؟ هـذا يعنـي أنّ مـا يهـم هـو مـآل هـذه الشـخصيات في الحكايـة، الـشيء المشـترك بينهـا، أي الكلمـة. النبتـة أو المـرأة في الكتـاب ليسـتا حطبـا ولا لحـما، الكلـمات هـي مـن تبرزهـما لـك.

كان مازينو يستمع إلي ثم قال فجأة:

- ولكن يوجد واقع وراء الكتاب. يوجد صراع طبقي. توجد إيديولوجيات.

- ومن قال العكس، يا مازينو؟ إنّما كل شيء في الكتاب يتحول إلى كلمات. وأنا أشرح لك أنه يجب أن تتعلمها، ليس إلّا. فصحة ودقة وعمق هذه الكلمات هي التي ستكون مهمة. يجب أن تحبها لكي تفهمها. ولهذا السبب بالضبط يخون عالم رجعي نفسه بسرعة بواسطة الكلمات التي يتبناها: أنت لا تعرف ما هي ولكنك تشعر أنها كلمات بليدة، مشوهة، زائفة. بينما من يتحدث إلى الإنسان بإيمان تاريخي يجد صوتا منعشا وجديدا. إنه أمر لا بد منه.

مازينو لا يفرح أبدا. فقال لي بعد لحظة وجيزة:

إذن كيف أنتم، الذين تفهمون هذه الأمور، تتحدثون جيّدا حتى عن الكتب القديمة التي نفّذت مهمّتها؟

كان يتكلم ليجعلني أتكلم، هذا واضح. ولكننا نتمازح هكذا. فقلت له:

- الكلمات. الكلمات بالضبط. أن تكون مهمّة تاريخية قد تم تنفيذها تماما، فهذا لا يهم. ذلك الإيمان بالانسان الذي أصبح كلمة لا ينتظر سوى قارئ ما حتى يحيا من جديد. والشيء الجميل هو حقّا أن الكلمات تمنح

الآن كل المعنـى والانتعـاش اللـذان تحتـوي عليهـما، بعـد زوال الواقـع الـذي أنتـج تلـك الكلـمات. يمكـن قـراءة الإليـاذة كروايـة ، وهـي أقـدم كتـاب. طبعـا، مـن الصعـب أن تقرأهـا هكـذا.

- ولا يوجـد فـرق بينهـا وبـين الكتـب الحديثـة؟ قـال مازينـو متوقّفـا. فـرق بـين الكتـب التـي تُـدرَّس في المدرسـة وبـين روايـات سْـتايْنبَكْ؟

- لا يوجد أي فرق بالنسبة لمن يعرف الكلمات.

- هذا جميل-قال مازينو- هذا لم يخطر ببالي أبدا.

- ولكن سْتايْنبَكْ أقلّ شأنا.

العنوان في الأصل: Le Parole

المصـدر: نـشر هـذا النـص في جريـدة لونيتـا L'Unità الإيطاليـة، بتاريـخ ٨ مـاي ١٩٤٦.

ملاحظـة المترجـم: كتـب بافيـزي هذيـن النصـين سـنة ١٩٤٦ وصـدرا في جريـدة لونيتـا L'Unità، لسـان حـال الحـزب الشـيوعي الإيطـالي، في شـهر مـاي ١٩٤٦. وكان بافيـزي قـد انخـرط في الحـزب الشـيوعي الإيطـالي غـداة تحريـر إيطاليـا من الاحتـلال الألمـاني سـنة ١٩٤٥ ونهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة في أوروبـا، في شـهر مايـو مـن نفـس العـام. وبـدأ الكاتـب ينـشر مسـاهماته في جريـدة لونيتـا ابتـداء مـن خريـف سـنة ١٩٤٥. اسـتمر تعاملـه مـع لونيتـا إلى غايـة سـنة ١٩٤٧.

كان يديـر مكتـب الجريـدة في توريـنـو دافيـدِه لايولـو (١٩١٢-١٩٨٤) Davide Lajolo، كاتـب وصحفـي إيطـالي شـارك في حـرب التحريـر الإيطاليـة مـن احتـلال القـوات الألمانيـة النازيـة لشـمال إيطاليـا. كان لايولـو صديقـا عزيـزا لـتشيزاري بافيـزي.

فهرس

"في الواقع، انت تكتب لكي تكون كالميّت، لكي تتكلّم من خارج الزمن، لكي تجعل من نفسك ذكرى للجميع."

تشيزاري بافيزي

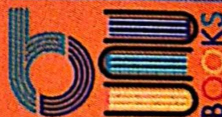
مهنة العيش.

ان كان بافيزي فشل في حرفة الحياة، فانّه تدارك الفشل وكتب الحياة من خلال أعماله، خاصّة قصصه القصيرة الأخّاذة، ليعوّض فداحتها التي عاشها ووضع حدّا لها بعد 9 أيّام من كتابته آخر سطور سيرته الذاتية في هذه المختارات القصصيّة والتي تعدّ الأولى من نوعها التي تنشر بالعربيّة، سنتعرّف على بافيزي القاص، معقوبا بملحق عن حياة الكتابة عنده، نحن أمام اسم استعصت عنه الحياة فكتبها.

لوحة الغلاف: الفنان سعد يكن - سوريا



منشورات 2022





خطوط وظلال للنشر والتوزيع

الأردن، عمان، جبل الحسين، بناية (20)
ص.ب: 11190، عمّان 925220 الأردن
تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+
email: dar5otot@gmail.com
دار خطوط للنشر والتوزيع